العودة

بقلم : احمد عبد الحميد

كانت هناك حتى اللحظة الأخيرة ...

احتضن المضجع الابدى جسد وحيدها .. وغاب فى جوف الثرى .. حيث يذوب كل صوت .. ويتلاشى كل حس وحركة .. ويتبدد الصدى الهزيل لبقايا وقع أقدام المشيعين .. التى راحت تبتعد .. وتبتعد ..

ثم .. يطبق الصمت الرهيب .. ويبتلع العدم كل شىء .

ولقد كانت الام الثكلى ترقب كل ما يدور أمامها .. هم يقومون بكل الاجراءات التى سبقت النهاية . يستبد بها حزن عاصف .. يتملكها جزع عنيف .. والدموع التى كست عينيها تخفق خلفها نظراتها الواهنة الخابية الكليلة .

انها لا تملك أبدا أن تحول دون عملية انتزاعه منها على هذه الصورة القاسية .. وقد انحنى جذعها الناحل الذى قوسته الصدمة الساحقة .. وهى تبذل جهدا عنيفا .. حتى لا تسقط على أيديهم .. تقبل كل يد .. وتتوسل الى كل قلب .. أن يرحموا ضعفها وشيخوختها .. ويتركوه لها لحظات فقط .. تأخذه بين أحضانها .. تلثم كل قطعة فيه .. كونتها هى ولا أحد سواها .. وسهرت عليها هى كل لحظة من لحظات عمره .

انها تود فقط أن تودعه الوداع الاخير .. الذى لا لقاء بعده . وتلقى نظرة أخيرة على محياه الحبيب الغالى العزيز .. الذى كان يملأ حياتها اشراقا وبسمات وضحكات .

وكادت تهتف وتصرخ من أعمق أعماق نفسها :

ـ اتركوه .. اتركوه أيها الجبابرة .. حرام أن تنتزعوه .. دعوه لى .. دعوه .. دعوه .

ولكن الكلمة احتبست فى صدرها المتداعى . ولم تنفلت من بين شفتيها الى آذان هؤلاء الذين راحوا يعملون فى

صمت ووجوم.. وهم يوسدون وحيدها مثواه الاخير .

وهى فى هذه اللحظات الفاصلة الحاسمة فى حياتها .. لم تذرف دمعة واحدة .. جفت الدموع .. ولم يكن هناك أدنى أمل فى أن ترهمها دمعة واحدة .. لتسقط فوق قمم الشقاء المكدس فى صدرها .. منذ أن لفظ وحيدها الشاب آخر أنفاسه .

وهى لا تدرى كيف انهت هذه اللحظات ؟ كيف غاب وحيدها ؟ وكيف أنها لم تشارك فى ارقاده .. وهى الوحيدة التى أرقدته عشرات المرات .. بل مئات المرات .. فوق مضجعه المريح .. وشدت عليه الغطاء وأرقدته .. حتى لا تتسلل اليه نسمة واحدة باردة قد تتسبب فى ايذائه .

مئات المرات قامت بهذه العملية .. وهو طفل فى عمر الزهور .. وهو صبى شقى عنيد .. وهو غلام يافع جميل .. حتى وهو شاب قد انضجته رجولة مبكرة جذابة .

فى كل هذه المراحل من عمره القصير .. لاتذكر أنها أهملت مرة واحدة .. القيام بارقاده والاطمئنان عليه .. حتى يغمض عينيه الجميلتين .. ثم تقبله .. وتلقى عليه بتحية المساء .. وتتركه لاحلامه الهانئة .

ولكنهم هذه المرة .. حرموها هذا الذى اعتادت عليه السنين الطوال . مع أنها المرة الاخيرة .. الاخيرة .

والذى يدهشها أنها كانت فى كامل وعيها .. تدرك كل صغيرة وكبيرة ... فهى قد فطنت الى هذا التجهم الذى يكسو كل وجه حولها .. والحزن الذى يحلق فوق الجميع .. والدمع فى عيون أصدقائه .. الذين لم تشهدهم معه الا مرحين صاخبين .. عندما كانت تستقبلهم فى زياراتهم لوحيدها .. وعندما تفتح لهم صدرها وعندما تقدم لهم العشاء .. وقلبها يرقص على أنغام ضحكاتهم .. ويطرب لرنين لهوهم .. ويسعد مع صخبهم وضجيجهم .

لقد حضروا جميعا .. كما اعتادوا أن يحضروا .. ولكن بلا ضحكات ولا صخب ولا لهو ولا مرح . انما يحملون وجوما يرتسم على قسمات الوجوه .. وأحزانا تاكل القلوب .. ودمعات تندى العيون . انها تحسدهم جميعا على شىء واحد .. هذه الدمعات فى عيونهم .. فلقد ظلت هى تذرف مثلها حتى نضب معينها .. وذلك منذ أن أصيب بالمرض المفاجىء الذى لم يمهله .. واختطفه منها . اختطفه لتلقفه أيدى هؤلاء الذين أوشكوا الآن على الانتهاء .. من اسقاط وحيدها فى مثواه الاخير .. مع الفراغ والفناء والعدم .

وعندما انتهى كل شىء .. استداروا فى خطى متثاقلة .. وتركوا ابنها وحيدا .. وحيدا . ولم يتركوها هى .. أسندوها الى أذرعهم الفتية .. ودفعوها معهم فى الموكب العائد الحزين .. دون أن يمنحوها فرصة واحدة .. لتلقى نظرة أخيرة على بقعة الارض الجرداء ، التى غاب فيها وحيدها ولن يعود .

ومضت الام .. تتوكأ على أكثر من ذراع امتدت اليها واسندتها .. للاقارب والاصدقاء .. وقد اختفى وحيدها من حياتها الى الابد .

ومضت الايام بها .. ثقيلة بطيئة

مريرة · الفراغ الموحش من حولها ·· يستمد وحشته من العدم ·· والاحزان التى تملأ حياتها ·· كأنها كل أحزان العالم قد تجمعت لديها عبر الدهور الطويلة ·· وحطت على قلبها التاعس الصغير المسكين ·

كان هذا الحزن فى بادىء الامر يثير شفقة الصخر ·· ويحرك لوعة الجماد · حزن صامت هادىء رزين ·

وهى لم تطق صبرا على البقاء فى نفس الدار التى كانت تعطرها أنفاس وحيدها الراحل ·· وتفوح فيها رائحة شبابه المرح السعيد ·· وتذكرها كل زاوية وكل بقعة ·· بوحيدها الذى ذهب ولن يعود ·

أرادت أن تفر من هذه الدار المشحونة بذكريات وحيدها والتى تعكس فى كل لحظة صورا من الماضى البعيد والقريب أرادت أن تفر من قسوة ما تعانيه ليل نهار ·· فانتقلت الى بيت آخر ·· فى مدينة أخرى · وقررت الا تغادر البيت الا محمولة على الاعناق ·· حيث تنعم بالراحة الابدية ·· الى جوار وحيدها الراحل ·

وانطوت الام على نفسها · أغلقت باب هذا البيت الجديد فى وجوه الناس جميعا · لم تسمح لاحد بزيارتها ·· ولم تجد فى نفسها أدنى رغبة فى أن تحدث أحدا · الوحشة تملأ داخلها كما تملأ الدار الخاوية من حولها · وطيف وحيدها لا يفارق خيالها لحظة واحدة ·

وبدأت تحس أن نفسها الكسيرة ، التى تحمل أحزانا وادعة صامتة ·· هذه النفس قد بدأت تهرب منها ·· وشىء جديد بدأ يتسلل الى حياتها · انه نوع من السخط والغضب ·· نوع من الحسد والكراهية ·· كلما تجمعت عند أسماعها ضحكات شابة مرحة ·· فتذكرها على الفور بضحكات الشاب الراحل الذى اختطفه منها القدر · وتسارع بفتح نافذتها تفتش بنظرات غاضبة عن صاحب الضحكات الشابة المرحة ·· وقد عبس قلبها ·· وكشرت عن أنيابها ·· وتتمنى لو تخفت هذه الضحكات ·· ويصاب صاحبها بمثل ما أصيب به وحيدها · كانت تمكث الساعات الطوال جامدة العين ·· صامتة كأنها تمثال من الصخر · ثم فجأة تثور وتسب العالم كله ·· وتلعن الناس جميعا ·· أولئك الذين يتقلبون فى المرح والسعادة ·· بينما حرمت هى من متعة السعادة والهناء ·· الذى ذات وانتهى بغياب وحيدها ·

لقد هربت منها نفسها الوادعة الحيرة ·· ربما الى غير عودة ·· تماما كما غاب عنها وحيدها ·· بلا عودة ·

وفى البيت الذى هربت منه الام فى المدينة الاخرى ·· كانت لا تزال تعيش أختها هانئة راضية ·· مع زوجها وأسرتها الصغيرة · وكانت الاخت قد أدركت ما أصاب أختها الثكلى ·· وبما طرأ عليها من تغيير كبير · وكانت نادرا ما تأتى لزيارتها ·· حتى لا تصب عليها جام حسدها وحنقها وكراهيتها المدمرة للعالم بأسره ·

وذات يوم ·· هبطت عليها هذه الاخت · جاءت لزيارتها عملا بالواجب عليها تجاه الام التعسة المسكينة ·

وكان لقاء جافا فاترا ·· أعقبه صمت ثقيل ·

وجلست الام الى جوار نافذة تطل على

الفضاء العريض .. تحدق بأبصارها في الفراغ البعيد الذى يشبه به الى حد كبير ذلك الفراغ الموحش الهائل الذى يطبق على حياتها . واندفعت الخواطر المريضة تدور بين جدران رأسها . ما الذى دعا اختها لزيارتها بعد انقطاع طويل عنها ؟! هل جاءت لتشمت بها وتسخر من مصابها ؟!

وتكلمت الاخت .. كأنما لتجيب على هذه الاسئلة التى تضطرم فى رأس الثكلى . راحت تعتذر عن تقصيرها فى الحضور .. فالمسافة بين البلدين بعيدة . وكانت حاملا تعانى المتاعب .. حتى وضعت حملها وهى بين الموت والحياة .. وشاءت ارادة الله أن تحيا .. ويخرج الى الحياة وليدها الصغير .

قالت الاخت الصغيرة هذا .. والوليد فى حجرها .. وقد هزته برفق .. فبدأ يتحرك وينبعث منه صوت ناعم رقيق .

ولم تكن الأم قد أعارت هذا الراقد فى حجرتها شيئا من الاهتمام .. فلما انقطعت اسماعها صوته الناعم .. بدأت تتفحصه فى شىء من الفضول .

وعادت الاخت الصغرى تستأنف حديثها . أخذت تقص على شقيقتها ظروف الحمل .. وعسر الولادة .. والآلام التى عانتها .. والتى كادت ان تخطف روحها من بين جبينها . والام صامته .. قد انشغلت بتأمل الطفل ومراقبة حركاته .. وتنفحص قسماته وملامحه الدقيقة .. وتحدق فى هذا الوجه الذى يشع براءة وحلاوة .. وقد انبعث من عينيه نظرات لامعة اخاذة كأنها النور الابيض .. يدور بها حوله فى حيرة . كان يبتسم ويعيش فى الخال .. يضحك ويبكى .. ويداه وقدماه فى حركة دائبة لا تهدأ لحظة واحدة .

كان حديث الاخت .. والام لازالت مغرقة فى صمتها .. وأنظارها مزروعة فى الطفل الجميل .. ترقبه فى اهتمام كبير .. وقد شغلها عن كل شىء حولها .. حتى عن احزانها .. ومصيبتها الفادحة فى وحيدها الراحل .

لقد دخلت ظاهرة حية جديدة فى هذا الدار الخربة الموحشة .. لتؤكد المعنى الحقيقى بأن فى الحياة حركة وتجددا وحيوية . وكان هذا الطفل وهو يناغى بصوته الرقيق .. أو يسخو بضحكة صافية أو يضرب الهواء بيديه وقدميه .. يريد أن يثبت للأم التى طحنتها الأحزان .. أنه على الرغم من ضآلة جسده مخلوق عظيم .. صورة حقيقية للحياة .. بكل ما فيها من ضجة وحركة واستمرار . كانت وهى تنتظر اليه تشهد صفحة حافلة من ذكريات مضت .. وشباب ولى . صفحة كاملة زاخرة بكل الصور واللوحات الحية التى عاصرتها مع وحيدها الراحل .

وتحولت المعانى التى كانت تنسكب

فى نظراتها .. من الفضول الى الشغف .. ومن القسوة الى الحنان . احست المراة لاول مرة منذ أن فقدت وحيدها .. بشىء جديد يدب فى قلبها الموحش ..

وخيل الى الأخت الصغرى أن أختها الثكلى لا تعير حديثها أى اهتمام .. فقررت أن تختصر من أمد الزيارة .. فلعلها قد اثقلت عليها وضايقتها .

وتحركت تريد أن تترك الغرفة

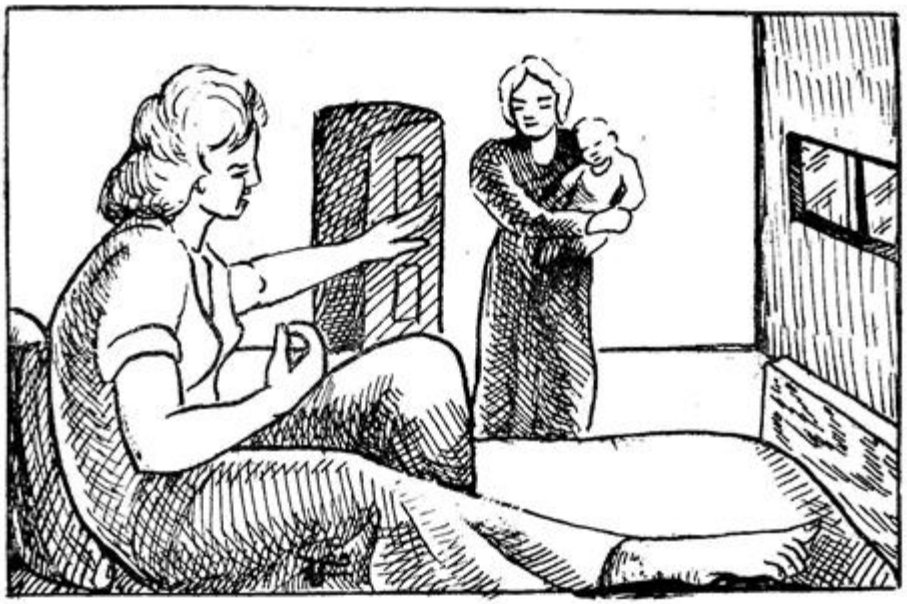

ولكن اختها الكبرى مدت ذراعيها وتناولت الصغير .. وضمته بين ذراعيها .. فى احضانها .. وحنت عليه فى رقة ووداعة .

وما ان احس الصغير بنفسه على صدرها .. حتى ابتسم لها بسمة حلوة بريئة صافية . وهنا قفزت الى فمها بسمة رقصت على شفتيها الجافتين. وكانت اول بسمة تتسلل الى شفتيها فى غفلة من احزانها .. منذ ان فقدت وحيدها . وانبعثت من مكانها الى جوار النافذة .. وأسرعت بالطفل الى الفراش ترقده عليه .. ريثما تستخرج له من خزانة ملابسها لفائف قديمة كانت لابنها فيما مضى .. وقد احتفظت بها على سبيل الذكرى . وقامت باستبدال لفائف جافة بلفائف الطفل المبتلة . ثم .. أخذت تداعبه وتلاطفه وتناغيه .. حتى استغرق فى نومه الملائكى .

واصرت ان تستبقى اختها فى ضيافتها بضعة أيام .. قضتها هى الى جوار الطفل الحبيب لم تفترق عنه لحظة واحدة .. تقوم على شئونه .. وتدلله .. وتهدهده .

ودب فى كيانها المحطم نوع جديد من الحركة .. وذاب فى جسدها نشاط عجيب .. فاقبلت على الحياة .. تفتح قلبها للضوء .. للناس .. لكل شىء وانقب المنزل الموحش الكئيب الحزين .. الى مكان للحيوية والحرارة والحركة

وعندما تهيأت الاخت الصغرى للرحيل رافقتها أختها لوداعها حتى محطة القطار الذى سيقلها الى بلدتها وفى لحظة الوداع .. انحنت على الطفل تقبله وتناغيه .. وهو يبتسم لها .. ويمد ذراعه الصغيرتين نحوها .. وهى لا تريد أن تفلته من بين ذراعيها .. وقد ضمت عليه أحضانها .. فى قوة وحرارة وشغف .

واخيرا .. رفعت عينيها الدامعتين نحو شقيقتها .. وطلبت منها فى حياء أن تأخذها معها .. لتكون دائما الى جوار الطفل الحبيب .

ومضى بالجميع القطار .. فى طريق العودة ..